# تفسير سورةُ النور
# من آية (15) إلى آية (21)
# اللقاء الرابع

**المعنى الإجمالي من آية (11) إلى آية (14):**

يقولُ الله تعالى: إنَّ الذين قذَفوا أمَّ المؤمنينَ عائِشةَ كَذِبًا وباطلًا، جماعةٌ منكم -أيُّها المسلِمونَ-، لا تَحسَبوا قذْفَهم لها شرًّا لكم، بل هو خيرٌ لكم؛ لكلِّ فردٍ من أولئك القاذفينَ حظُّه من العذابِ بقَدْرِ جُرمِه، والذي تحمَّلَ مُعظَمَ ذلك الافتِراءِ والكَذِبِ له عذابٌ عظيمٌ.

هلَّا حين سَمِعتُم ذلك الإفكَ ظننتُم -أيُّها المؤمِنونَ والمؤمِناتُ- بإخوانِكم وأخواتِكم خيرًا مِن العفافِ والصَّلاحِ، وقلتُم: هذا القذفُ كَذِبٌ وافتراءٌ باطِلٌ! وهلَّا جاء هؤلاء المفتَرونَ القاذِفونَ بالباطِلِ بأربعةِ رجالٍ عُدولٍ يشهَدون على صِحَّةِ قولِهم! وما داموا لم يأتوا بالشُّهداءِ فإنَّهم -في حُكمِ الله تعالى- كاذِبونَ.

ولولا فَضلُ الله عليكم ورحمتُه بكم -بإمهالِكم للتَّوبةِ، وعدَمِ تعجيلِ العقوبةِ لكم، وعَفوِه عنكم- لنزَلَ بكم بسبَبِ خَوضِكم في حديثِ الإفكِ عذابٌ عظيمٌ.

ونجمل ما تم تفصيله في اللقاء الماضي بالنسبة لحديث الإفك، أن النبي -ﷺ-، في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق -رضي الله عنهما-، فانقطع عقدها فانحبست في طلبه ورحلوا جملها وهودجها، فلم يفقدوها، ثم استقل الجيش راحلا وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها، رجعوا إليها فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي، من أفاضل الصحابة -رضي الله عنه-، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة -رضي الله عنها- فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعد ما نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي -ﷺ-، في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال، أشاع ما أشاع، ووشى الحديث، وتلقفته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحبس الوحي مدة طويلة عن الرسول -ﷺ-، وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزنا شديداً، فأنزل الله تعالى براءتها في عشر آيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة.

والمذهل العجيب أن كل هذه الآلام والأحزان التي خيمت على المدينة مدة شهر كامل بسبب تناقل كلام لا دليل عليه، وأتساءل يا ترى كم من المرات نحن نمارس هذه الممارسات السيئة؟ كم من المرات نقفز إلى تصديق الخبر الذي نسمع؟ نقفز إلى إيصال خبر نحن لسنا على علم ولا يقين بأنه صحيح، كم

من المرات نقفز لنقول شيئًا ليس لنا به علم؟! والقرآن يقول لنا في أكثر من موضع (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) [الإسراء:36]، الكلمة مسؤولية فكم من بيوت وأُسر وصداقات وعلاقات قوية متينة وعمل مؤسساتي فسد بسبب كلمة قد قيلت، وكلمة قد تم نقلها وتداولها، وإشاعة تم عرضها في مجالس متعددة فإذا بتلك العلاقات تنهار كأنها لم تكن! الكلمة تفعل فعلًا كبيرًا في حياتنا، نقل الأخبار يفعل فعله في حياتنا كأفراد وكمجتمعات. رقية علواني

⇦وهنا يأتي التحذير من جارحة اللسان، التي تجرح القلوب، وتقتل المشاعر، وتكون أشد ألماً من الخناجر والسكاكين.....

**(أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ)**

**﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾**

**﴿15﴾**

**(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ)** أي: لَمَسَّكم عذابٌ عظيمٌ حين تتلقَّونَ الإفكَ، ويأخُذُه ويَرويه بعضُكم عن بعضٍ. موسوعة التفسير

لسان يتلقى عن لسان، بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إمعان نظر، حتى لكأن القول لا يمر على الآذان، ولا تتملاه الرؤوس، ولا تتدبره القلوب.

فإنْ قيل: كيفَ يُسنَدُ التَّلقِّي إلى الألسنةِ مع أنَّ الكلامَ يُتلقَّى بالأُذنِ؟

قال الشنقيطي: إنَّ في الكلامِ حَذفًا دلَّ عليه المقامُ؛ أي: تَلَقَّونه حالَ كونِكم تُشِيعونَه بألسنتِكم؛ ففيه إشارةٌ إلى سرعةِ إشاعتِه، بحيث كأنَّه لا يقَعُ على الأسماعِ، وإنَّما يقَعُ على اللِّسانِ ثمَّ يُنقَلُ مُباشَرةً!

قال ابن الجوزي: (ذَكَرَ الوقتَ الذي لولا فَضلُه لأصابهم فيه العذابُ، وكان الرجُلُ منهم يَلْقى الرجُلَ فيقولُ: بلَغَني كذا، فيتلقَّاه بعضُهم من بعضٍ).

**(وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ)** أي: وتقولونَ في عائشةَ كلامًا ليس لكم أيُّ دليلٍ على صحَّتِه. موسوعة التفسير

والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم، بأفواهكم لا بوعيكم ولا بعقلكم ولا بقلبكم، إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه، قبل أن تستقر في المدارك، وقبل أن تتلقاها العقول.

وقال ابن جُزي: (في هذا الكلامِ عِتابٌ لهم على خوضِهم في حديثِ الإفكِ، وإن كانوا لم يُصَدِّقوه؛ فإنَّ الواجِبَ كان الإغضاءَ عن ذِكرِه، والترْكَ له بالكلِّيَّةِ، فعاتَبَهم على ثلاثةِ أشياءَ، وهي: تلقِّيهِ بالألسنةِ، أي: السؤالُ عنه، وأخْذُه مِن المسؤولِ، والثاني: قولُهم ذلك، والثالث: أنهم حَسِبوه هيِّنًا، وهو عندَ الله عظيمٌ).

قال ابن عثيمين: في هذا تربيةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ تُفيدُ أنَّ الإنسانَ يتثبَّتُ فيما يقولُ؛ لِيَكونَ قولُه معتبرًا، ولِيَسْلَمَ مِن إثمِ القولِ بلا علمٍ، لا سيَّما إذا كان القولُ على الله؛ فإنَّه لا أحدَ أظلَمُ ممَّن افترى على الله كذبًا، أو كان القولُ في النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وآلِ بيتِه وأصحابِه. ففيه مِن الأدَبِ الأخلاقيِّ أنَّ المرءَ لا يقولُ بلِسانِه إلَّا ما يعلَمُه ويتحقَّقُه، وإلَّا فهو أحدُ رجُلين: أَفِنُ "ناقِصُ العقلِ" الرأيِ، يقولُ الشَّيءَ قبْلَ أن يتبيَّنَ له الأمرُ، فيُوشِكُ أن يقولَ الكَذِبَ فيَحسَبَه النَّاسُ كذَّابًا، وفي الحديثِ: ((كفَى بالمرءِ كذبًا أن يحَدِّثَ بكُلِّ ما سمِعَ))أخرجه مسلم، أو رجُلٌ مُمَوِّهٌ مُراءٍ، يقولُ ما يعتَقِدُ خِلافَه؛ قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) [البقرة: 204]، وقال: (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) [الصف: 3]. هذا في الخبرِ، وكذلك الشأنُ في الوعدِ، فلا يَعِدُ إلَّا بما يعلَمُ أنَّه يستطيعُ الوفاءَ به، وفي الحديثِ: ((آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخلفَ، وإذا ائتُمِنَ خان)). متفق عليه

**(وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)** أي: وتَظُنُّونَ أنَّ تلقِّيَكم الإفكَ، وروايةَ بَعضِكم له عن بعضٍ، والخوضَ فيه بلا علمٍ- أمرٌ سهلٌ يسيرٌ، وهو عندَ اللهِ ذنْبٌ عظيمٌ مِن كبائرِ الذُّنوبِ. موسوعة التفسير

قال الرازي: يُرشِدُ إلى أنَّ الواجِبَ على المكلَّفِ في كلِّ محرَّمٍ أن يَستعظِمَ الإقدامَ عليه؛ إذ لا يأمَنُ أنَّه من الكبائرِ، قال السعدي: فهذا فيه الزَّجرُ البليغُ عن تعاطي بعضِ الذنوبِ على وجهِ التَّهاونِ بها؛ فإنَّ العبدَ لا يُفيدُه حسبانُه شيئًا، ولا يُخفِّفُ مِن عقوبةِ الذَّنبِ، بل يُضاعفُ الذَّنبَ، ويُسهِّلُ عليه مواقعتَه مرَّةً أُخرَى.

قال رسول الله -ﷺ-: "وإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ". صحيح البخاري

قال رسول الله -ﷺ-: "إنَّ العبدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمةِ ما يَتَبَيَّنُ فيها، يَزِلُّ بِها في النارِ أبعدَ ما بين المشرقِ والمغرِبِ". صحيح الجامع

كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [النور: 23].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ -ﷺ-قال: ((اجتَنِبوا السَّبْعَ الموبِقاتِ "المهلِكاتِ"، قيل: يا رسولَ اللهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتلُ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ إلا بالحقِّ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأكلُ الرِّبا، والتولِّي يومَ الزَّحفِ "الإعراضُ عن الحَربِ، والفِرارُ مِن الكُفَّارِ"، وقَذفُ المحصَناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ)) رواه مسلم.

(وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ): كما أن القليل من السموم تقتل الابدان، فإن الزلل من المعاصي يمكن أن يقتل الايمان في القلوب.

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَها، وَكَبِيرَهَا؛ ذَاكَ التُّقَى! وَاصْنَعْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى؛ لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى!

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾﴿16﴾

(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا) أي: وهلَّا حين سَمِعتُم الإفكَ قلتُم: ما يَنبغي لنا أن نتكلَّمَ بهذا الباطِلِ أو نذكُرَه لأحدٍ. موسوعة التفسير

❍أي هلا، وهي هنا لتوبيخ الخائضين في حديث الإفك.

❍قُلْتُمْ منكرين لذلك، معظمين لأمره: مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا أي: ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام، بهذا الإفك المبين، لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح.

(سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) أي: ننزِّهُك -يا ربَّنا- ونبرأُ إليك من هذا الكَذِبِ العظيمِ. موسوعة التفسير

قال الألوسي: فلا يَنبغي لمن يؤمِنُ باللهِ تعالى ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يخالِجَ قلبَه بعدَ الوقوفِ على الآياتِ والأخبارِ شَكٌّ في طهارةِ نساءِ الأنبياءِ -عليهم الصلاةُ والسَّلامُ- عن الفُجورِ في حياةِ أزواجِهنَّ، وبعدَ وفاتِهم عنهنَّ.

لَمَّا وصَفَ طَعنَ اليَهودِ في مريمَ بأنَّه بُهتانٌ عَظيمٌ، وذلك في قَولِه تعالى: (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا) [النساء: 156]، ووصَفَ طَعْنَ المنافقينَ في عائشةَ بأنَّه بهتانٌ عظيمٌ؛ حيث قال هنا: سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ- دَلَّ ذلك على أنَّ الرَّوافِضَ الذين يَطعنونَ في عائشةَ -رضِيَ اللهُ عنها- بمنزلةِ اليهودِ الذين يطعنونَ في مريمَ عليها السَّلامُ.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿17﴾

(يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أي: يَنصَحُكم اللهُ ويُذَكِّرُكم وينَهاكم؛ لئلَّا تَعودُوا لِقَذفِ المحصَناتِ، والخَوضِ في أعراضِهنَّ بلا عِلمٍ، إن كنتُم مؤمنينَ باللهِ وشَرعِه، وتتَّعظونَ بِعِظاتِه، فتنتهُون عمَّا نهاكم عنه، وتأتمِرون بأمرِه. موسوعة التفسير

❁والوعظ هو تذكير الإنسان بما يلين قلبه من الثواب والعقاب، ومع تعليق إيمانهم على الانتفاع بتلك العظة: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

⇦أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أي لنظيره، من رمي المؤمنين بالفجور، فالله يعظكم وينصحكم عن ذلك، ونعم المواعظ والنصائح من ربنا فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان، والتسليم والشكر له، على ما بين لنا.

قال ابن عثيمين: فضلُ اللهِ ورحمتُه بالعِبادِ؛ حيثُ كان اللهُ سُبحانَه وتعالى يَعِظُهم عمَّا يضُرُّهم ويُنافي إيمانَهم، ولا شكَّ أنَّ الذي يَعِظُك ويُرشِدُك وينصَحُك له فَضلٌ عليك.

قال السعدي: يدُلُّ على أنَّ الإيمانَ الصَّادِقَ يمنَعُ صاحِبَه من الإقدامِ على المحَرَّماتِ.

⇦ ويمنع صاحبه من المعصية بجوارحه، أو الاعتداء على الناس وظلمهم.

⇦ولو تأملنا لعلمنا أن ارتكاب المعاصي كبيرها وصغيرها، والاعتداء على الناس، وراءه ضعف في إيمان العبد، كلما أمتلئ القلب إيماناً بالله واليوم الاخر، وأنه الى ربه راجع، وأنه سيحاسب على مثقال الذرة، كان ذلك أكبر رادع له، فتقل حجم المعاصي وتستعصي عليه جوارحه، فلا تطيعه في معصية الرب سبحانه، ولا الاعتداء على الناس، وكلما قل الايمان بالله واليوم الاخر، عظمت معاصيه حتى أنه يأتي الكبائر وهو لا يشعر، كما قَالَ ابْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه-: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ وَقَعَ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا فَطَارَ". الْبُخَارِيُّ

**﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾﴿18﴾**

**(وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ)** أي: ويوضِّحُ اللهُ لكم آياتِ كتابِه، فيَجعَلُها لكم واضِحةَ الدَّلالةِ على المقصودِ؛ لتَعمَلوا بها وتتَّعِظوا. موسوعة التفسير

وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ: المشتملة على بيان الأحكام، والوعظ، والزجر، والترغيب، والترهيب، يوضحها لكم توضيحا جليا. سليمان اللهيميد

قال البِقَاعي: (وَيُبَيِّنُ اللَّهُ أي: بما له مِن الاتِّصافِ بصِفاتِ الجلالِ والإكرامِ لَكُمُ الْآيَاتِ أي: العلاماتِ الموضِّحةَ للحَقِّ والباطِلِ، مِن كُلِّ أمرٍ دينيٍّ أو دُنيويٍّ).

قال ابن عثيمين: أنَّه ينبغي للمؤمِنِ إذا خَفِيَ عليه شيءٌ أن يَتأمَّلَ؛ لأنَّ الآياتِ مُبَيَّنةٌ وظاهِرةٌ، فمثلًا إذا خَفِيَ عليك حُكمُ شيءٍ مِن كتابِ اللهِ، فأعِدِ النظرَ؛ لأنَّ اللهَ قال: وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ، فالآياتُ مُبَيَّنَاتٌ، وخفاؤُها على الإنسانِ في بعضِ الأحيانِ يدُلُّ على قُصورِه؛ إمَّا في العلمِ، أو الفَهمِ، أو التَّدبُّرِ.

**(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)** أي: واللهُ عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بعبادِه وما يُصلِحُهم، وعِلمُه بأعمالِهم، فيُجازي كلًّا بما قدَّم مِن خيرٍ أو شرٍّ، وهو ذو الحكمةِ التامَّةِ العامَّةِ، ومِن ذلك حكمتُه في شرعِه، وتكليفِ عِبادِه، وتدبيرِ خَلقِه، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللائِقِ به. موسوعة التفسير

عَلِيمٌ أي: كامل العلم - سبحانه - وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، فمن علمه وحكمته، أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعا لمصالحكم في كل وقت، حَكِيمٌ في شرعه، فكل ما شرعه فهو لحكمة، وفي قدره، فكل ما أجرى عليكم من الأقدار لحكمة، يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها مواقعها، ولا يأمر إلا بما فيه الخير، ولا ينهى إلا عما فيه الشر، ولا يعذِّب إلا من استحق، ولا يُقدِّر إلا ما فيه حكمة وهدف، فأفعاله سديدة، وصنعه متقن، فلا يقدِّر شيئاً عبثاً، ولا يفعل لغير حكمة؛ بل كل ذلك بحكمةٍ وعلمٍ وإن غاب عن الخلائق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿19﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه ما على أهلِ الإفكِ وما على مَن سَمِع منهم، وما يَنبغي أن يتمَسَّكوا به من آدابِ الدِّينِ؛ أتبَعَه بقَولِه: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ؛ لِيُعلَمَ أنَّ من أحَبَّ ذلك فقد شارك في هذا الذَّمِّ، كما شارك فيه مَن فَعَلَه ومَن لم يُنكِرْه، ولِيُعلَمَ أنَّ أهلَ الإفكِ كما عليهم العقوبةُ فيما أظهروه، فكذلك يَستحِقُّون العقابَ بما أسرُّوه مِن محبَّةِ إشاعةِ الفاحشةِ في المؤمنينَ

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) أي: إنَّ الذين يُحِبُّون أنْ يظهرَ الزِّنا، ويَشيعَ خبرُه، والقذفُ به في أوساطِ المؤمنينَ والمؤمناتِ؛ لهم عذابٌ مُؤْلِمٌ في الدُّنيا وفي الآخرةِ. موسوعة التفسير

الْفَاحِشَةُ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة المستعظمة، فيحبون أن تشتهر الفاحشة وهي كل قَوْل أو فِعْل أو تصرُّف شنيعٌ وفَاقِدٌ كُلَّ حياء.

الألفاظ البذيئة، والاشارات الموحية بقلة الحياء، وعلاقات الى غير ذلك.... مما يستقبح ويستعظم فعله، شرعاً وعرفاً.

فمن يحب الزنا، أو فعل قوم لوط، أو تبرج النساء، أو الاختلاط، فإنه متوعد بالعذاب.

إذا كان الذي يحب انتشار الفساد في المجتمع المسلم له عذاب أليم، فكيف بمن يعمل ذلك وينشره، ويقوم عليه، ويساعد على نشر الرذيلة، ويسهل أمرها ويشجع عليها، ومن يفتح القنوات الإباحية، والمجلات الفاسدة، من ذلك التحدث بالمجالس بالفواحش، لأن ذلك يهون شأنها في النفوس، ويرقق الأسماع، ويدخل في الآية القذف، فإنه من إشاعة الفاحشة، ويدخل في ذلك كل عمل أو قول يساعد على نشر الفاحشة.

قال الماتريدي: (هذا يحتَمِلُ وجهين؛ أحدُهما: يُشيعونَ الفاحشةَ ويُذيعونها في الذين آمنوا، هم الذين تولَّوا إشاعتَها وإذاعتَها فيهم، لهم ما ذُكِرَ من العذابِ الأليمِ. والثاني: يُحِبُّونَ أن تشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا؛ ليَكونَ ذلك ذريعةً لهم في المؤمنينَ، فيقولون: إنَّ دينَكم لم يمنَعْكم عن الفواحِشِ والمنكَرِ).

قال بكر أبو زيد: هذا الوَعيدُ الشَّديدُ يَنطَبِقُ على دُعاةِ تَحريرِ المرأةِ في بلادِ الإسلامِ مِن الحِجابِ، والتخَلُّصِ مِن الأوامِرِ الشَّرعيَّةِ الضَّابِطةِ لها في عِفَّتِها وحِشمتِها وحيائِها.

قال الرازي: يدُلُّ على وجوبِ سلامةِ القَلبِ للمُؤمنينَ، كوجوبِ كَفِّ الجوارِحِ والقَولِ عمَّا يَضُرُّ بهم.

وقال السعدي: (إذا كان هذا الوعيدُ لمجَرَّدِ محبَّةِ أن تَشيعَ الفاحِشةُ، واستِحْلاءِ ذلك بالقَلبِ، فكيف بما هو أعظَمُ من ذلك؛ مِن إظهارِه ونَقْلِه؟! وسواءٌ كانت الفاحِشةُ صادِرةً أو غيرَ صادرةٍ).

قال الرازي: يدُلُّ على أنَّ العَزمَ على الذَّنبِ العَظيمِ عَظيمٌ، وأنَّ إرادةَ الفِسقِ فِسقٌ؛ لأنَّه تعالى علَّق الوعيدَ بمحبَّةِ إشاعةِ الفاحشةِ.

قال ابن عاشور: لِشُيوعِ أخبارِ الفواحِشِ بيْن المؤمِنينَ بالصِّدقِ أو بالكَذِبِ مَفسدةٌ أخلاقيَّةٌ؛ فإنَّ ممَّا يَزَعُ النَّاسَ عن المفاسِدِ تَهيُّبَهم وُقوعَها، وكراهتَهم سوءَ سُمعتِها، وذلك ممَّا يَصرِفُ تفكيرَهم عن تذكُّرِها – بَلْهَ الإقدامِ عليها– رويدًا رويدًا حتى تُنسى وتَنْمحي صُوَرُها مِن النُّفوسِ، فإذا انتشرَ بيْن الأمَّةِ الحديثُ بوقوعِ شَيءٍ مِن الفواحِشِ، تذكَّرَتها الخواطِرُ، وخَفَّ وقْعُ خَبَرِها على الأسماعِ؛ فدَبَّ بذلك إلى النُّفوسِ التهاوُنُ بوقوعِها، وخِفَّةُ وَقعِها على الأسماعِ، فلا تلبَثُ النفوسُ الخبيثةُ أن تُقدِمَ على اقترافِها، وبمقدارِ تكرُّرِ وُقوعِها وتكرُّرِ الحديثِ عنها تصيرُ متداوَلةً. هذا إلى ما في إشاعةِ الفاحشةِ مِن لَحاقِ الأذى والضُّرِّ بالنَّاسِ ضُرًّا متفاوِتَ المقدارِ على تفاوُتِ الأخبارِ في الصِّدقِ والكَذِبِ.

وقال ابن جزي: (ورد في الحديثِ: أنَّ مَن عُوقِب في الدُّنيا على ذنبٍ لم يُعاقَبْ عليه في الآخرةِ [يُنظر ما أخرجه البخاري «3892»، ومسلم «1709» مِن حديثِ عُبادةَ]، فأَشكَل اجتِماعُ الحَدِّ معَ عذابِ الآخرةِ في هذا الموضِعِ، فيَحتَمِلُ أن يكونَ القاذِفُ يُعذَّبُ في الآخرةِ ولا يُسقِطُ الحَدُّ عنه عذابَ الآخرةِ بخلافِ سائِرِ الحدودِ، أو يكونَ هذا مختَصًّا بمن قذَفَ عائشةَ...، أو يكونَ لِمن مات مُصِرًّا غيرَ تائبٍ، أو يكونَ للمُنافِقين).

وكل هذا من رحمة الله بعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه.

**(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)** أي: واللهُ يَعلمُ جميعَ المعلوماتِ، ومِن جملةِ ذلك عِلمُه ما في القلوب مِن الأسرارِ والضمائرِ، فيَعلمُ مَن يُحِبُّ إشاعةَ الفاحشةِ، وهو معاقِبُه عليها، ويَعلمُ كَذِبَ الذين جاؤوا بالإفكِ، ويعلَمُ ما في ذلك من المفاسِدِ فيَعِظُكم لتَجتَنِبوا، وأنتم لا تعلمونَ إلَّا ما علَّمكم، وبيَّن لكم، فرُدُّوا الأمورَ إليه تَرْشُدوا، ولا تَرْوُوا ما لا عِلمَ لكم به. موسوعة التفسير

والله يعلم سبحانه من يحب إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، لأن المحبة من أفعال القلوب التي لا يطلع عليها ولا يعرف ما فيها إلا الله وحده.

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((صَعِدَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المِنبَرَ، فنادى بصوتٍ رفيعٍ، فقال: يا معشَرَ مَن أسْلَمَ بلِسانِه، ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبِه، لا تُؤْذُوا المسلِمينَ، ولا تُعَيِّروهم، ولا تتَّبِعوا عَوْراتِهم؛ فإنَّه مَن تتَبَّع عَوْرةَ أخيه المسلِمِ تتَبَّع اللهُ عورتَه، ومَن تتَّبَع اللهُ عَورتَه يَفْضَحْهُ ولو في جَوفِ رَحلِه)). صحيح سنن الترمذي

ونظَرَ ابنُ عُمَرَ يومًا إلى البَيتِ أو إلى الكعبةِ، فقال: ما أعظَمَكِ وأعظَمَ حُرمَتَكِ! والمؤمِنُ أعظَمُ حُرمةً عندَ اللهِ مِنكِ.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿20﴾

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) ي: ولولا فَضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه وأنَّه رؤوفٌ بكم؛ لعجَّل لكم العُقوبةَ على خَوضِكم في الإفكِ، لكِنَّه لم يعاقِبْكم، وتاب عليكم. موسوعة التفسير

تكرير الفضل والرحمة لتأكيد المنة ولبيان عظم الجريمة، وجواب (لولا) محذوف لإرادة التفخيم والتعظيم، أي لعذبكم وأهلككم واستأصلكم.

ولما بين لكم هذه الأحكام والمواعظ، والحكم الجليلة، ولما أمهل من خالف أمره، الرؤوف اسم من أسماء الله، والرأفة أشد الرحمة، أي لولا رحمته الشديدة بكم لعاجلكم بالعقوبة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾﴿21﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا أخبرَ تعالى بأنَّه ما أنزَل لهم هذا الشَّرعَ على لسانِ هذا الرَّسولِ الرؤوفِ الرَّحيمِ إلَّا رحمةً لهم، بعْدَ أن حذَّرهم موارِدَ الجَهلِ؛ نهاهم عن التَّمادي فيه في سياقٍ مُعْلِمٍ أنَّ الدَّاعيَ إليه الشَّيطانُ العَدُوُّ.

قال السعدي: وأيضًا لَمَّا نَهَى تعالى عمَّا نَهَى عنه فيما سبَق بخصوصِه، نَهَى عن الذنوبِ عمومًا، فقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) أي: يا أيُّها الذين آمنوا لا تَسلُكوا طُرُقَ الشَّيطانِ التي يَدْعوكم إليها بوساوسِه، كإشاعةِ الفاحشةِ في الذين آمنوا. موسوعة التفسير

قال ابن مسعود: "إذا سمعت الله يقول:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا) فارعها سمعك، فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه".

قال السعدي: (وخُطواتُ الشَّيطانِ يدخُلُ فيها سائِرُ المعاصي المتعَلِّقةِ بالقَلبِ واللِّسانِ والبَدَنِ).

(وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) أي: ومَن يَسلُكْ طرُقَ الشَّيطانِ يقَعْ في الفَحشاءِ والمنكَرِ؛ لأنَّ الشيطانَ يأمُرُ النَّاسَ بفِعلِ الذُّنوبِ العظيمةِ القبيحةِ، كالزِّنا، ويأمُرُ بمُنكراتِ الأقوالِ والأفعالِ التي تُنكِرُها الشَّريعةُ والعقولُ السَّليمةُ. موسوعة التفسير

معنى الفَاحِشَة: كل قَوْل أو فِعْل أو تصرُّف شنيعٌ وفَاقِدٌ كُلَّ حياء.

والمنكر: هو ما تنكره العقول والفطر السوية، وما أنكره الشارع ونهى عنه وحذر منه.

قال ابن عثيمين: التَّحذيرُ مِن اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ، وبيانُ عاقبةِ اتِّباعِها، قال السعدي: ومِن حِكمتِه تعالى أنْ بَيَّنَ الحُكمَ، وهو: النَّهيُ عن اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ. والحِكمةَ، وهي: بيانُ ما في المنهيِّ عنه مِنَ الشَّرِّ المقتضي والدَّاعي لِتَركِه؛ فنَهيُ اللهِ عنها للعبادِ نِعمةٌ منه عليهم أن يَشكُروه ويَذكُروه؛ لأنَّ ذلك صيانةٌ لهم عن التدَنُّسِ بالرَّذائِلِ والقَبائحِ؛ فمِن إحسانِه عليهم أنْ نهاهم عنها كما نهاهم عن

أكلِ السُّمومِ القاتِلةِ، ونَحوِها. قال ابن عثيمين: ومِن نعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى أنْ يُبيِّنَ للعِبادِ أسبابَ الشَّرِّ، ويُحَذِّرَهم منها، يعني لا يَكِلُهم إلى أنفُسِهم، بل اللهُ سُبحانَه وتعالى يتولَّى بيانَ ذلك بفَضلِه ورَحمتِه.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا) أي: ولولا فَضلُ الله عليكم ورحمتُه بكم، ما تطهَّر أحَدٌ منكم أبدًا مِن الشِّركِ والمعاصي واتِّباعِ خُطواتِ الشَّيطانِ، ولا اهتدَى إلى الإيمانِ والتَّوبةِ النَّصوحِ وطاعةِ الرَّحمنِ. موسوعة التفسير

(وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ) أي: ولكنَّ اللهَ يُطهِّرُ مِن الذُّنوبِ وآثامِها، ويهدي إليه مَن يشاءُ مِن عبادِه، ممَّن يستحِقُّ ذلك. موسوعة التفسير

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) أي: واللهُ سميعٌ لأقوالِكم كُلِّها؛ خَيرِها وشَرِّها، عليمٌ بأقوالِكم وأعمالِكم وما في قلوبِكم، وهو محيطٌ بكلِّ ذلك، ومُحصيه عليكم؛ لِيُجازيَكم به. موسوعة التفسير

جاءت نسبة التزكية على عدة أوجه:

❶ مرة تنسب إلى العبد على أنه فاعل يقوم بالتزكية يكتسبها يسير في طريقها، والدليل قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) [المؤمنون:4]

❷ ومرة تنسب إلى الله لأنه سبحانه يعين العبد ويدله ويهديه ويوفقه لذلك والدليل قوله تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ) (بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ) [النساء:49]

❸ ومرة تنسب الى النبي -ﷺ- لأنه وصف للناس الطريق الذي يصلوا به الى التزكية، والدليل قوله تعالى: (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) [الجمعة:2]

❁ واستخدام الطاعات القلبية والبدنية كالآله لتنفيذ التزكية.

❁ وفي الأخير نتيقن أن الله وحده سبحانه المتفضل على عباده بالتزكية، والدليل قوله تعالى: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [النور:21]

❁ فنتذلل إلى الله ليوفقنا ويسددنا إلى الأقوال والأعمال التي تزكينا، وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ الله عنه، قال: كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((اللهُمَّ آتِ نفْسي تَقْواها، وزَكِّها أنت خيرُ مَن زَكَّاها، أنت وليُّها ومَوْلاها)) رواه مسلم

أصبح هناك أربع خطوات لتزكية:

❶ أنت طالب التزكية.

❷ والله سبحانه وتعالى فاعلها، فندعوه ونسأله سبحانه أن يزكينا ويطهرنا.

❸ ونتبع سنة النبي -ﷺ- ونعلم أن بدونها لن تحصل التزكية.

❹ ونفعل العبادات الباطنة والظاهرة من أجل تزكية أنفسنا، ومزاحمة الحق للباطل، واليقين بأن الله هو المعين على ذلك.

المعاصي ما هي إلا خطوات الشيطان، والله حذرنا من هذا العدو الماكر فقال: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) [فاطر :6]

هذا العدو أقسم بعزة الله على إضلال بني آدم فقال: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) [ص:82]

وما أخرج آدم –عليه السلام– من الجنة إلا عدو الله إبليس، بسلاحه الماضي الوسواس، قال تعالى: (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى) [طه:120]

ف إبليس –نعوذ بالله منه– مادام الإنسان شارداً عن منهج الله يتركه، ما دام منغمساً في الملذات والمعاصي والآثام يتركه، قيل لبعض السلف: إن اليهود والنصارى يقولون: لا نوسوس. قال: صدقوا! وما يصنع الشيطان بالبيت الخرب؟ فإذا تاب إلى الله توبة نصوحًا، وعزم على الاستقامة، تصدى له إبليس، وجاءه من جميع الجهات يبحث عن مدخل ليقطع عليه طريقه الى الجنة ويسلكه طريق النار –نعوذ بالله من مكره–، "ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ"[الأعراف: 17]، "وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ" [الأعراف:21]

قال ابن القيم: مبيناً طريقة الشيطان في إغواء بني آدم وأنه يأتيه بالتدرج فقال رحمه الله: "لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحداً منها أو أكثر:

المرتبة الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه.

المرتبة الثانية: البدعة، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي، لأن ضررها في نفس الدين، وهي ضرر متعد.

المرتبة الثالثة: وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصاً على أن يوقعه فيها، ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً.

المرتبة الرابعة: وهي الصغائر التي إذا اجتمعت أهلكت صاحبها قال رسول الله –ﷺ–: "إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ". رواه الإمام أحمد

المرتبة الخامسة: وهي اشتغاله بالمباحات التي لا ثواب منها ولا عقاب، بل عاقبتها فوات الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها.

المرتبة السادسة: وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليربح عليه الفضلة ويفوته ثواب العمل الفاضل.

"وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا": أي: لولا هو –سبحانه– يرزق من يشاء بالتوبة والرجوع إليه، ويزكي النفوس من شركها، وفجورها وذنبها، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خير، وما تطهر من اتباع خطوات الشيطان، لأن الشيطان يسعى، هو

وجنده، في الدعوة إليها وتحسينها، والإنسان ضعيف والنفس ميالة إلى السوء أمارة به، والنقص مستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خلي وهذه الدواعي، ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات.

فإن الزكاء يتضمن الطهارة(التخلية)، والنماء(التحلية)، ومن فضله ورحمته أن يتزكى من عباده من تزكى، لذلك يجب على العبد أن يسأل الله الهداية والتوفيق، والاعانة منه على ان يزكيه، مقتدياً بالنبي -ﷺ-: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»، وينبغي للعاقل أن يسعى في تزكية نفسه، كما قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا)، (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ) يعلم سبحانه من يقبل الهداية فيوفقه لأسبابها، ولهذا قال: (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم)، والله يسمع ويعلم، فيزكي من يستحق التزكية، ويطهر من يعلم فيه الخير والاستعداد، (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)، (إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا).